سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(9) صناعة الفقه: المقاصد الشرعية والسياسية عند علال الفاسي

الحلقة السابعة

2.5) في المنفى

ظهرت مع انبثاق بذور العمل الهيكلي لهذه النخبة الوطنية مع بداية سنة 1931، الكثير من الجمعيات السرية المختلفة الأهداف، والتي ستوحد جهودهـا تحـت مظلـة ***كتلـة العمل الوطنـي*** "كعمل جمعوي سنة 1352 هـ/1933 م ليتم انتخاب ***علال الفاسـي*** *رئيساً لها* سـنة 1355 هـ/1936 م.

وقد أنشأت ***الكتلة*** عدة لجان، خصت كل واحدة منها بمجال معين. وكانـت مـن بينهـا ***لجنة التعليم العليا*** " التي تأسست بالرباط سنة 1934 والتي سينتخب علال الفاسي *رئيساً لها*.

قلت:

وعندما أقدم الاستعمار الفرنسي على حل ***الكتلـة*** " بقرار إداري في شوال سـنة 1355 هـ/مطلع سنة 1936 م وجدنا ***علال الفاسي*** يؤسس ***الحزب الوطني*** " وينتخب *رئيساً لـه*، ليعتقل ويعذب ويصادر على حرياته إلى أن قر قرار الإدارة الاستعمارية الفرنسية الإقدام على الأسـوأ في حقه، وذلك بنفيه إلى ***الغابون*** ب ***إفريقيا الاستوائية*** أيام حكومة ليـون بلوم (Léon Blum) (1872 – 1950)[1] الاشتراكية.

وهو ***المنفى الذي سيمكث فيه علال لمدة ناهزت التسع سنوات***[2]، كتمرين فـي إضـاعة الأعمار هدراً وظلماً وعدواناً.

ومثلت عملية النفي هذه، أقل أساليب الاستعمار الفرنسي مكراً ودهاء في إبعاد ***الوطنين*** الأكثر خطورة ونباهة على السياسة الاستعمارية الفرنسية. وهو ما لم تتبعه مـع أيّ مغربـي

---

[1] كان زعيما من سنة 1920 إلى سنة 1950 لحزب: "La Section Française de l'Internationale Ouvrière" الشهير بمختصره (S.F.I.O.)

[2] امتد منفاه رحمه الله من 21 محرم 1356 هـ/3 أبريل 1937 م إلى 26 رجب 1365 هـ/26 يوليو 1946 م. وأثناء إقامته في منفاه الغابوني، تأسس "حزب الاستقلال" سنة 1363 هـ1944 م الذي اختاره زعيماً له.

آخر، من جهة بعد الشقة، سوى مـــع المجاهـــد ***عبد الكريم الخطابي*** رحمهمـــا الله، ***لرمزانيتهما الدينية*** قبل السياسية!.

وسيتأسس ***حزب الاستقلال*** سنة 1943 وعلال لا زال يكابد الغربة في منفـــاه وينتخـــب ***رئيساً له***.

ولم يعد إلى المغرب إلا سنة 1365 هـــ (20 رجـــب)/1946 م (20 يونيـــو)، دون أن يستقر به مقام، حيث وجدناه يشد الرحال في رحلة طويلة سيزور خلالها الكثيـــر مـــن الـــدول العربية والأوروبية والإفريقية والآسيوية معرفاً بقضية المغرب وداعياً إلى استقلاله.

وسيشارك في تنظيم حفل استقبال زعيم الثورة الريفية المغربيـــة ***محمد بن عبد الكريم الخطابي*** (ت: 1964 م) بالقـــاهرة (صـــورة للمجاهـــد عنـــد نزولـــه فـــي الإســـكندرية ، ليربط الماضي بالحاضر من جديد، وليعمل على فضح السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب.

وستمنع فرنسا علال من دخول المغرب مجدداً، ليظل بمدينة ***طنجة*** التي كانت تخـــضع ***لنظام استعماري دولي*** خلال الفترة (1369 هـــ/ 1949 م –1372 هـــ/1952 م).

وقد اضطرته هذه الظروف القاهرة إلى الاستقرار مؤقتاً بمصر، حيـــث سيـــستمر فـــي مقاومته للاستعمار الفرنسي من موطنه الجديد، لينتخـــب ***أميناً عاماً*** ل "***حركة تحرير المغرب العربي***"، التي كانت تحت الرئاسة الشرفية ل***الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي***، ثـــم ليقود الحركة السرية ل "***جيش التحرير المغربي***".

وقد ساهم رحمه الله ضمن هذا الإطار في إنشاء "***جيش التحرير الجزائري***" في شـــهر ذي الحجة سنة 1372 هـــ/سبتمبر 1953 م، وربطتـــه ضـــمن "***حركة تحرير المغرب العربي***"

رابطة صداقة سياسية حميمية مـــع الـــزعيم القـــومي التونـــسي المتقلـــب الأطـــوار ***الحبيب بورقيبة*** والكثير من الزعماء السياسيين الشمال إفريقيين والمشارقة والأسيويين.

قلت:

ويمكن تبين مدى العلاقة بين الرجلين من خلال واقعة الحكم بالإعدام الذي أصدره النظام البورقيبي على صديق دربهما معاً في الكفاح! صالح بن يوسف **(1907 – 1961)**[3] **، حيث كتب** علال الفاسي **في عمود له تحت عنوان: "**رأي مواطن**" بجريدة "**العلم**" لسان حزبه، حزب الاستقلال، في عدد 5 فبراير 1956 جاء فيه:**

{لا أريد أن أتدخل في الشؤون الداخلية لتونس، وإن كنت أعتبرها جزءاً لا يتجزأ من وطني الكبير المغرب العربي، ولا أحب كذلك أن أمس بحال شخصية الرئيس بورقيبة **الذي لي معه صلات الكفاح المشترك والتقدير المتبادل. (...) ولكني مع ذلك أرى من الواجب علي أن أقول كلمة الوفاء نحو صداقة قديمة وزمالة كفاح هي الأخرى ذات قيمة في فطرة الإنسان وخلق الإسلام، وأن أعرب عن أسفي للأحكام التي صدرت في تونس ضد شخصية الأستاذ** صالح بن يوسف **وأنصاره، خصوصاً السيد** حسن التريكي **والسيد** علي الزليتني**. لقد عرفت صالح بن يوسف منذ كان طالباً للحقوق بفرنسا سنة 1933 ثم عرفت كفاحه داخل الدستور وصداقته مع رئيس الحزب (بورقيبة) وقادته وأتيحت لي الفرصة أن أشترك معه في أندونيسيا وأمريكا وفي مصر في عملنا لخير المغرب العربي عموماً وأن أقدر فيه حبه لبلده وتفانيه في صالحها، وتمسكه بالدستور الجديد وعمله الدائم في دائرته، وأعتقد أنه *ما كان ليستحق الحكم بالإعدام* مع احترامي *للحاكمين عليه!!* (..) وإني أطالب السيد بورقيبة بذلك لأنه الذي يملك زمام الحكم ويستطيع أن يخطو الخطوات الإيجابي نحو إخوانه!!...}.**

ولم يشفع هذا للرجل عند *المجاهد!!! الأكبر!!!* كما كان يحلو لبورقيبة أن يطلق على نفسه![4].

وقد تم اغتيال صلاح من طرف عصابة في مدينة فرنكفورت في 2 يونيو 1961[5].

---

[3] له ترجمة في موسوعة ويكيبيديا {صلاح بن يوسف http://ar.wikipedia.org/wiki/ }

[4] أنظر علال الفاسي: "رأي مواطن"، ص.457-458، جمع وترتيب عبد الرحمن بن العربي الحريشي، مؤسسة علال الفاسي، الرباط، المغرب.

[5] له ترجمة في موسوعة ويكيبيديا {صلاح بن يوسف http://ar.wikipedia.org/wiki/ }

قلت:

وبالرغم من هذا المشوار الحركي الطويل لعلال، المليء بالمنافي والتقلبات السياسية وعدم الاستقرار، فقد استطاع أن يختلس مع ذلك من وقته ما يكفيه لتأليف العديد من الكتب في العلوم الشرعية[6]، **و**السياسة[7]، **و**الاقتصاد[8]، **و**التاريخ[9]، **و**السير[10]**..إلخ.، وأن يشغل لاحقاً عدة مناصب وزارية[11] وتعليمية مختلفة[12] قبل أن يوافيه أجله المحتوم في مدينة *بوخارست*، *العاصمة الرومانية***

، بسكتة قلبية في 20 ربيع الثاني سنة 1394 هـ/1974 م رحمه الله.

3) حفريات في السياسة المغربية

ونظراً لكون *علال الفاسي*، وعلى خلاف كل أبناء جيله الذين شاركوه الدراسة برحاب جامع القرويين **، أو الذين التقى بهم واختلط مساره بمسارهم خارجها، مازج**

---

[6] مثل: "مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها"، و"دفاعاً عن الشريعة"، و"الإسلام وتحديات العصر"، و"المدخل لدراسة النظرة العامة للفقه الإسلامي"، و"شرح مدونة الأحوال الشخصية المغربية"، و"دفاعاً عن الأصالة" وغيرها.

[7] مثل" "الحماية في مراكش (المغرب) من الوجهتين التاريخية والقانونية"، و"الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، و"معركة اليوم والغد"، و>دائماً مع الشعب"، و"الحرية"، و"السياسة البربرية في المغرب"، و"حفريات عن الحركة الدستورية في المغرب قبل الاستقلال"، و"دفاعاً عن وحدة البلاد"، و"كي لا ننسى" وغيرها.

[8] مثل: "في المذاهب الاقتصادية".

[9] مثل: "مفاخر العلويين"، و"معركة وادي المخازن في ذكراها الأربعمائة"، و"تاريخ التشريع الإسلامي"، و"مستندات لتاريخ المقاومة المغربية"

[10] مثل: "نضالية الإمام مالك ورجال مذهبه"

[11] شغل منصب وزير دولة مكلف بالشؤون الإسلامية للفترة (1380 هـ/1960 م - 1382 هـ/1963 م).

[12] درس بكلية الشريعة التابعة لجامعة القرويين وبكليتي الحقوق والآداب التابعين لجامعة محمد الخامس وبدار الحديث الحسنية.

بين السياسة والعلوم الشرعية، ما لم يحصل لغيره في جيله، فيجدر بنا، قبل معالجة مقاصدياته كما فهمها هو نظرياً وممارسة، أن نحيط علماً، زياة على هذا الظاهر المشاع من سيرته، الذي سلطت فوقه بعض الأضواء الكاشفة حتى عرته، ولم يبق فيه من زوايا مظلمة أو تحت الظل، بما ظل خفياً من هذه السيرة، أو لفه الغموض، وبحاجة ماسة إلى حفر وتنقيب، حتى تستكمل صورة الرجل.

فعلال الفاسي، من وجهة نظر ***سياسة - اجتماعية*** محضة، وإن فتح عينيه على ***دولة محصلة الصفر***"[13] بمميزاتها ومحدداتها المعروفة يوم ولادته سنة 1908 م، إلا أن قدر حياته سيكتب مع دولة الاستعمار الفرنسية، التي نحت بهذه الدولة القروسطية التنظيم والتشكيل إلى منطقة الظل، أثناء إدارتها لشؤون البلد باسم ***الحماية***"، في مخاض عسير سيدوم من سنة 1912 إلى سنة 1956 م.

ولن تخرج الدولة المخزنية من نفق هذا الاستلاب قط كما دخلته. أضف إلى هذا، أن لهذا البعد نفسه تاريخ وجذور، عالجها علال في غير ما كتاب من كتبه[14].

وقد بدأ الاستعمار الأوروبي، والفرنسي منه خاصة، يدق أبواب المغرب بعنف مع منتصف القرن التاسع عشر، بينما لم يكن المغرب، قد مر من تجربة سياسية، كتلك التي مر منها المشرق الإسلامي مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي أثناء احتكاكه بالغرب، ولا أن أحداً من المغاربة يومها، في ظل ***دولة محصلة الصفر***" كان مهيئاً لأن يشغل نفسه، أو وقته، أو عقله، بتصور إمكان حدوث مثله للبلد، أو وجد من رأى من نفسه، توفر الكفاءة والكفاية، في أن يجتهد لمستقبل البلد، مستشرفاً لما كان يمكن أن يترتب عن كل ذلك من سيناريوهات، لو حصلت!، ولو كتمرين ذهني افتراضي، بالرغم:

أولاً: من القرب الجغرافي للأوروبيين من المغرب، الذين ظلوا بحكم التاريخ والجغرافيا، على مرمى حجر من شواطئه الشمالية، بل والقابعين على أرضه، كما هو الحال بالنسبة لتواجد

---

[13] أنظر كتابنا: "محاورات في علم الاجتماع السياسي: مفهوم دولة محصلة الصفر"

[14] مثل ما فعل في كتاب: "الديمقراطية وكفاح الشعب المغربي من أجلها"، وفي كتاب: "الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي"

الإسبان المباشر في كل من مدينة ***مليلية*** المحتلة من طرف الإسبان منذ سنة 1497، ومدينة ***سبتة***[15] المحتلة من طرف البرتغال أولاً، والمسلمة للإسبان منذ سنة 1580، واللتان ظلتا مثار حروب ومناوشات وقلاقل مستمرة بين حاميتيهما العسكريتين، وبين المجاهدين المغاربة المرابطين حولهما، في محاولاتهم المستميتة من أجل استرجاعهما يوماً ما إلى الوطن الأم

،

وثانياً: من وجود بعض التجار المغاربة، المعروفين باسم: "***تجار السلطان***" الذين كانت لهم معاملات تجارية مع الخارج سواء أيام ***دولة السعديين*** (960 هـ/1553 م – 1070 هـ/1659 م) أو ***دولة العلويين*** (1080 هـ/1669 م –).

وهو ما ظل معمولاً به كعرف مخزني حتى منتصف القرن التاسع عشر، قبل أن تقضي عليه الاتفاقية التجارية المجحفة في حق المغرب، المبرمة مع ***الإنجليز*** سنة 1273 هـ/1856 م، و***باسم الصاقة***!، في عهد السلطان ***عبد الرحمن بن هشام*** رحمه الله، حال:

أ) – **التاجر والسفير التطواني:** ***عبد الكريم بريشة*** (1240 هـ/1830 م – 1315 هـ/1897)، الذي كانت له تجارة خارجية زاولها بنفسه صغيراً، ومنذ سنة 1853 في كل من "***السويس***" بمصر ومدينة ***"جدة"*** بالحجاز، زيادة على ما كان له من أعمال تجارية

---

[15] حاول نابليون بونبارت أن يستميل المولى سليمان للانضمام إلى الحصار القاري الذي كان فرضه على الإنجليز، واعداً إياه بالمساعدة على تحرير كل من سبتة و مليلية. بل راهن نابليون على أن يسانده المولى سليمان في احتلال مدريد، إلا أنه أجابه: " إن سبتة ومليلية متاع المغرب لابد من عودتهما إلى المغرب ". واتخذ المولى سليمان نفس الموقف عام 1271 هـ/1854 م من أمريكا التي طلبت منه الانضمام للدول المحايدة والدخول في الحلف الروسي الأمريكي في (حرب القرم) مقابل إرجاع سبتة ومليلية للمغرب فرفض السلطان هذا العرض تضامنا مع الباب العالي بالأستانة.

داخلية موزعة في بعض المدن المغربية كتصريف للمنتجات التي كان يستجلبها من الخـــارج، شبيهة إلى حد ما، ومن عدة وجوه ب "*إلكونسورتيومات*" التجارية الكبيرة بفروع في كـــل مـــن مدن: تطوان، وفاس، والجديدة، ومراكش[16]، أو حال:

ب) – **التـاجر:** *محمد بن عبد الهادي زنيبر السلاوي* (كـــان حيـــاً حـــوالي 1300 هـــ/1882) الذي أثرى ثراءاً فاحشاً من تجارته مع مدينـــة *مانشيستر* (Manchester) فـــي بريطانيا وتوليته من طرف المخزن على *أمانة* مرسى العرائش وكذلك على *الحسبة*[17]، أو حال:

ت) – ***التاجر:*** *الطالب بن الحاج المكي بوهلال الفاسي*، ثم *الصويري* الـــذي تخـــصص وعائلته في تصدير الصمغ، واللوز، وزيت الزيتون وغيرها من المواد الفلاحية لجنوب المغرب عن طريق ميناء مدينة الصويرة[18] إلى كل مـــن *جبل طارق*، و*لندن* وغيرهـــا مـــن الأســـواق الأوروبية،...إلخ.

قلت:

وما ميز هذه الطبقة من التجار الانتهازيين، سواء أعملوا لحسابهم الخاص أو كتجـــار للسلطان، أو كأمناء في الموانئ، أو محتسبين، هو انتماؤهم *للأقلية الحضرية الأندلسية*، التـــي اشتهرت بخدمة المخزن، ما اشتهر *تجار السلطان اليهود*" من أمثال عائلـــة *أبراهام كوركوس* (Abraham Corcos) الصويرية[19] وعائلـــة *المالح* (El--Maleh) الرباطية-الصويرية وغيرهما[20].

---

[16] أنظر أحمد معنينو: "السفير المغربي عبد الكريم بريشة، "مجلة دعوة الحق" عدد رقم: 4، ص. 161-172، أبريل سنة 1971.

[17] محمد بن هاشم الكتاني: "زهرة الآس في بيوتات فاس"، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ك 1281، ص. 394 وكذلك جان كوستي في: "الأسر الأهلية الكبيرة بسلا" في:
Cousté, J. 1931: "Les Grandes Familles Indigènes de Salé", Imp. Off., Rabat, p. 60.

[18] ابتنى مدينة الصويرة السلطان العلوي محمد بن عبد الله كتعويض عن آكادير التي لم تكن في مأمن من هجمات الثوار. فجلب إليها التجار من داخل المغرب ومن خارجه باتباع سياسة إسقاط الأعشار عليهم في البداية ثم عشرهم لاحقاً عندما نفقت تجارتهم فيها، لتصبح من أهم الثغو التجارية بالجنوب المغربي. أنظر: التاصري في "الاستقصا" (8: 20).

[19] ينحدر أصله من يهود البرتغال الذين هاجر جدهم الأول يوشع كوركوس إلى المغرب وتوفي بفاس سنة 1552 م. وتفرعوا بعدة فروع في كل مدن المغرب الرئيسية وبفروع اخرى في لندن والأراضي المنخفضة. وقد استطاع أبراهام كوركوس أن يشغل منصب نائب قنصلي للولايات المتحدة الأمريكية بمدينة الصويرة، والذي سيستغل هذا المنصب لحسابه الخاص، وذلك بتمتيع وكلائه في الداخل بالحماية الأمريكية!. أنظر جان لوي ميج في "وثائق للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي المغربي" في:
Miège, J., L., 1969: "Documents d'histoire économique et sociale marocaine au XIX siècle", p. 252-254, Paris.

[20] البورجوازية اليهودية شملت عائلة السرفاتي (Serfati)، وسيريرو (Serero)، ودانان (Danan[])، النازحين من غرناطة، وابن زيمرا (Benzimra) النازحين من طليطلة، والباز (Elbaz)، وطوليدانو (Tolidano)، وأنكاوا (Encaoua)، وبرديغو (Berdugo) النازحين من البرتغال،..إلخ. فهي هجرات من محاكم التفتيش الكنسية السيئة الذكر والسمعة التي وجدت في تسامح الإسلام الملاذ الوحيد من تلك الويلات.أنظر أندري شوراكي في: "ملحمة اليهود في شمال إفريقيا" في:

و ستمازج عائلة *المالح* هذه، وتخلط ما بين حقلي الدين والتجارة، لتتحكم في دواليب التجارة المغربية مع *الإنجليز* إلى درجة الاحتكار المطلق[21]، ما سيمزج بينهما لاحقاً القاضي *أحمد بن المأمون البلغيثي* (ت: 1348 هـ/1930 م)، الذي سيعمل قاضياً ب *فاس* ثم ب *الصويرة*، ويؤلف في ذلك كتابه الدال على الوجهة التي بدأت تتجه نحوها قرائح رجالات القضاء والحسبة ومن هم دونهم رتبة في هذا العصر، بعنوانه اللافت: *"بيان الخسارة في بدعة من حط من قيمة التجارة"* [22]، على غرار ما ألف أبو عمرو الجاحظ (150 هـ/767 م – 255 هـ/869 م) ومنذ دهر في كتابه: *"مدح التجارة وذم عمل السلطان"*![23].

قلت:

وحال مغاربة هذا العصر، هو أنهم تجاوزا خيار الجاحظ، ليجمعوا بين محاسن الوظيفتين!، مادامتا تكملان بعضهما بعضاً وبأحسن وجه يمكن تخيله أو تصوره، من حيث مراكمة المال بالاستعانة بوظيف المخزن، وخزنه آمنا كل الإتمان عليه، من بطش ذات المخزن، حتى أمكن للكثير من هؤلاء القضاة والمحتسبين والأمناء..إلخ. الجمع بين الوظيفتين في تناغم لافت!.

وهو ما صار بعد فتوحات هؤلاء الرواد الأوائل، ديدن نخبة عصر بأكمله، أغرى وأسال لعاب أبناء وحفدة القاضي وغيره، الذين تقطّع بينهم الآن وبين أخلاقيات ما يدرس ب جامع القرويين إلى غير رجعة!، حتى أننا عبثاً نبحث أن نجد لأحدهم من ذكر، في قائمة خريجي القرويين ضمن الفوج الذي تخرج فيه علال الفاسي.

لقد شقوا طريقهم المعبد الموازي مع المخزن، في خدمة مصالحهم أولاً، قبل خدمة المخزن أو غيره، وتركوا لأصحاب القرويين طريقهم المتعرج المليء بالحفر!.

Chouraki, A., 1972: "La Saga des Juifs en Afrique du Nord", Hachette, Paris.

[21] أنظردانيال، شروتر في: "اليهود الإنجليز والصويرة، 1860-1900: ورطات العمل الخيري الاجتماعي" في:
Schroeter, D., J., 1984: "Anglo-Jewry and Essaouira, 1860-1900, The Social Implications of Philanthropy", Transaction of the Jewish Historical Society of England, 28, p. 75-80.

[22] توجد مخطوطة مصورة على ميكروفيلم منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 1233.

[23] نشر ضمن "رسائل الجاحظ"، مجموعة محمد سامي المغربي.

يقول المؤرخ الرباطي ***بوجندار*** (ت: 1345 هـ/1926 م) عن النهاية التي ستنتهي إليها كل هذه الأجيال كمأزق عام [24]:

وكانت تلك الأيام على ما فيها من كثرة الغزوات والحركات كلها خيرات ومبرات، لم يُكدر صفوها إلا تسرب أقوام من التجار للمناصب السامية والمراتب العالية، فارتفعت منزلته ونفذت كلمتهم، وصار بيدهم الحل والعقد والأخذ والرد، ولكنهم لسوء تصرفهم أوقعوا بالدولة الوقعة الأخيرة وأصابوها بالأزمة الخطيرة. وزاد الطين بلة، تفاحش المظالم والتعديات من باقي الحكام، فنشأ عن ذلك مزيد من التخل الأجنبي لحماية أفراد من أهالي من سيطرة حكامهم.

وبقي الأمر يتزايد إلى أن اضطر الدول، لتقديم اقتراحاتهم في شأن إقامة ميزان العدل والمساواة في الحقوق وبث النظام الوقتي، من إصلاح الطرقات، وتسهيل المواصلات. فكان السلطان المولى الحسن يدافع عن ذلك بالتي هي أحسن إلى أن توفي.

وبوفاته اتسع الخرق على الراتق واستوت الفرازن والبيادق، بل اختلط الحابل بالنابل، إلى أن حل بنا ما حل، وليس المسؤول بأعلم من السائل.

قلت:

بل إن الكثير من وجهاء وأعيان هذه النخبة المستفيدة من خدمات المخزن كقضاة، ومحتسبين، ووكلاء، وأمناء موانئ، المغتنين بخدمة المخزن خدمة لمصالحهم، ممن كانوا يدرسون بالقرويين، قد توصلوا بحدسهم الفطري وحاستهم التجارية السادسة، دونما حاجة إلى أن يذكرهم، لا القاضي البلغيتي ولا الجاحظ قبله، إلى ذات النتيجة المنطقية تقريباً، وهي: أن ***القرويين*** لم تعد بالمرقاة إلى الاغتناء أو الإثراء، فحولوا وجهتهم وقبلتهم مبكراً، شطر اهتمامات أكثر دنيوية، وأبلغ نفعاً لهم في دنياهم وأجدى، (وإن ضيعت على الكثير منهم آخرتهم) مع دخول الاستعمار الفرنسي إلى المغرب، ليحولوا أبناءهم أيضاً من ***حصير القرويين*** المغبر وغير المريح إلى ***كراسي المدارس الفرنسية*** الأكثر نظافة وراحة، والتي ستكون بمثابة تكأتهم وعكازتهم، المؤهلة لهم ولذريتهم من بعدهم إلى السيطرة المطلقة على كل دواليب الاقتصاد ومرافق التجارة بالمغرب دون أن يرتد لهم طرف!.

---

[24] أنظر: محمد بن مصطفى بوجندار الرباطي في: "الاغتباط بتراجم أعلام الرباط" ص. 61 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم د 1287

لكن، ورغماً عن كل هذا، فلم يكن من مطمح لأيّ من هؤلاء الفرقاء، في أن يشارك في صنع القرار السياسي، حتى ولو دعي لذلك، لما جبل عليه من خوف، من مخزن كانت له *جرأة كبيرة على سفك الدماء*، ولأتفه الأسباب.

يقول علال الفاسي عن هذه النخب التجارية،[25]:

وطبيعي أن تترتب على الظاهرة الأولى (أي استقرار النظام الملكي منذ عهد المولى سليمان) رغبة ملحة من طرف فرنسا وشركائها في الاستعمار، في التسرب إلى داخل التراب المغربي والهيمنة على اقتصادياته. وحرصاً من الدولة المغربية على إعاقة هذا التسرب، جعل مولاي عبد الرحمن يسلك سياسة "الاحتكار التجاري"، والحيلولة دون الأوروبيين وبين تحقيق مراميهم في فتح المغرب للنشاط الاقتصادي الأوروبي. هذا الاحتكار الذي أصبح في الواقعالعملي أداة لا ستغلال فئة من المحظوظين المغاربة، الذين يمكنهم أن يتجروا وحدهم في المواد المجلوبة من الخارج، ورفع الأثمان على الطريقة التي يختارونها، والتي تمس طبعاً بالمستهلكين الأهالي. وكان ذلك في الوقت الذي ازدهرتفيه في أوروبا مبادئ الليبرالية في الاقتصاد والتجارة، الأمر الذي ليس من شأنه أن يبقي الدول الطموحة لاستقلال إفريقيا مكتوفة الأيدي – إلى عوامل استعمارية أخرى.

كما أدى إلى خلق فكرة المخالطة التجارية، وحماية المخالط الأهلي من طرف زبونه الأوروبي. وهكذا اتسعت دائرة النفوذ الأجنبي وتحالف رأس المال الاستعماري مع التجار المغاربة لمقاومة الاحتكار الرسمي وفسح المجال لاحتلال البلاد. وكانت نتيجة ذلك دعوة السلطان (الحسن الأول) إلى عقد مؤتمر للتخفيف من حدة الامتيازات الأجنبية تلك، فانعقد المؤتمر في مدريد سنة **1880** م، ومع ما تم من فوز للدبلوماسية المغربية، فقد أدخل البلاد في دائرة التنسيق الأوروبي على مثل ما قيل لمصر: إنها أصبحت جزءاً من الغرب!.

وطبيعي أن تترتب على الظاهرة الثانية (أي هزيمة المغرب في إيسلي وتطوان) شعور المغاربة، حكومة وشعباً، بضعف الأنظمة العسكرية المغربية، ونقصان المعرفة والاطلاع على الأساليب الحديثة في تسيير الدولة. ولم تكتم النخبة المغربية دعوتها إلى التجديد، وتحذيرها من البقاء في الجمود الذي غطى على الأفكار وعاق الأمة عن التطور الصاعد، فألف الفقيه *محمد بن عبد القادر الكردودي* المتوفي سنة **1268** ه/موافق **1851** هـ رسالة سماها: "***كشف الغمة، في أن الحرب النظامي واجب على هذه الأمة***" تحدث في الباب الخامس عن ضرورة الشورى لنجاح الأمة، وقال:

{قلت: والروم لعهدنا، وكذلك الترك فيما بلغنا قصروا الشورى على أربعين رجلاً فلا يبرم عندهم أمر إلا إن صدر عن رأيهم، وتسمى هذه الجماعة الكرطيس}

قلت:

ولئن كانت قلة قليلة، من نخب أهل الحواضر المغربية: *فاس*، و*الرباط*، و*سلا*، و*مكناسة الزيتون*، و*تطوان*، و*الصويرة*، هم الذين كان لهم وعي سياسي، أو إلمام معرفي بما حصل في

[25] علال الفاسي: "الديمقراطية وكفاح الشعب المغربي من أجلها" ص. 5-7.

دولة ***محمد علي باشا الكبير*** (1184 هـ/1770 م – 1265 هـ/1849 م) المصرية ومشروعه النهضوي الكبير، من حيث الأفكار التي قام عليها، أو الغايات التي كان يتوخاها، أو الوسائل التي استعملها لبلوغ تلك الأهداف أو المقاصد، ف ***المخزن المغربي***، ولا شك هو من بين تلك الفئة، إن لم يكن هو كل تلك الفئة، لاحتكاره لكل سلطة وكل اتصال وكل معرفة!.

ذلك أنه، وإن ظل غائباً عن تلك الأحداث، التي كانت تقع خارج محيطه ***الجيوسياسي*** القريب، إلا أنه لم يكن جاهلاً بها، لارتباط بعض جيرانه بها إما مباشرة أو عن طريق غير مباشر من خلال من يدورون في فلكهم.

ويمكن إعطاء فكرة عن هذه العلاقات مع الحوار، بعلاقات المغرب مع بايات الجزائر التي لم تكن على ما يرام في بعض الأحيان، مما كان يضطر المخزن المغربي، عندما تعييه الحيل بالتي هي أحسن، إلى الالتجاء رأساً إلى الباب العالي بالأستانة للتدخل.

وهو ما حصل مثلاً إبان حكم المولى: محمد بن عبد الله ***(1122 هـ/ 1710 م – 1205 هـ/1790 م)*** [26] وعلاقته الجيدة مع الخليفة العثماني *مصطفى الثالث بن السلطان أحمد الثالث* (1129 هـ/1757 م – 1187 هـ/1774 م) الذي تبادل معه الهدايا الثمينة من خلال سفارة الفقيهين: الطاهر بن عبد السلام السلاوي، و*الطاهر بناني الرباطي* سنة 1179 هـ/1765 م[27]. وبعد سنتين أرسل محمد بن عبد الله هدية مع الرئيس البحري *عبد الكريم راغون التطواني* إلى مصطفى الثالث، فرد عليها الأخير بهدية أكبر وهي عبارة عن سفينة حربية كاملة التجهيز ببحارتها وردت من الأستانة سنة 1181 هـ/1767 م حاملة لسفيره معها[28].

---

[26] له ترجمة في موسوعة ويكيبيديا{سيدي محمد بن عبد الله http://ar.wikipedia.org/wiki/ }

[27] أنظر "الاستقصا" (8: 25)

[28] انظر "الاستقصا" (8: 31)

بل إن اتصالات المغرب بالشرق والغرب سواء، لم تكن في عصر ما، أحسن مما كانت عليه إبان هذه الفترة من حكم الدولة العلوية الممتدة من منتصف ولاية المولى ***إسماعيل بن محمد الشريف*** (1056 هـ/1645 م - 1139 هـ/1727 م) إلى ***كارثة إسلي*** سنة 1844 أيام السلطان ***عبد الرحمن بن هشام***، إما من خلال حجيج المغاربة الذين كانوا يمرون، وهم في طريقهم إليه على مصر، أو حتى عن طريق الأستانة بحراً، إن لم يأمنوا الطريق، أو من خلال بعض الرحلات السفارية، التي كان يقوم بها، بين الفينة وأخرى، بعض وجهاء المخزن، حال ما نجد إبان هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب، في السفارة التي أوفد فيها السلطان المغربي ***محمد بن عبد الله*** (1172 هـ/1757 م -1205 هـ/1790 م) وزيره ***أبا القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني*** (1147 هـ/1734 م - 1249 هـ/1833 م) إلى السلطان العثماني ***عبد الحميد الأول*** (1188 هـ/1774 م - 1204 هـ/1789 م) وقدم الزياني لعبد الحميد كتاباً تقليدياً في الآداب السلطانية حمل عنوان: "***رسالة السلوك فيما يجب على الملوك***"[29]، أو في إيفاده لسفيره الآخر وكاتبه ***أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي*** إلى ملك إسبانيا ***كارلوس الثالث*** ***(1759 م – 1788 م)*** ، بشأن تجديد معاهدة الصلح بين البلدين وافتداء بعض ***الأسرى الجزائريين*** الذين كانت تحتجزهم إسبانيا عندها، ولم يفكر في افتكاكهم من الأسر أحد، والذي وصف رحلته الناجحة هذه التي سترقيه إلى مصاف وزير، في كتاب ***"الإكسير في فكاك الأسير"*** [30].

قلت:

وكانت له رحلة سفارية ثانية إلى كل من ***مالطة*** و***نابولي*** لافتداء أسرى المسلمين الذين كانوا مأسورين بهذين البلدين، بغض النظر عن مواطنهم.

---

[29] توجد نسخة مخطوطة من الكتاب ضمن مجموع من 97 ب إلى 180 ب بخزانة جامعة القرويين بفاس.

[30] نشره محمد الفاسي ضمن سلسلة الرحلات (1): سفارية رقم: 1، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، التابع لكلية الآداب بجامعة محمد الخامس، سنة 1965.

وقد سجل وقائع الرحلة في كتاب: ***"البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر"***[31]، ثم رحلته ثالثة إلى ***تركيا*** لدى السلطان العثماني ***عبد الحميد الأول*** (1774 1789)[32]، بسبب من المناوشات التي كانت تحدث على الحدود ***الجزائرية المغربية***، وسجل كعادته وقائع الرحلة في كتاب: ***"إحراز المعلى والرقيب"***[33].

فلم يكن المغرب إذن، منعزلاً ولا معزولاً على صعيد السياسة الخارجية الدولية، طالما ظل يتمتع بحكم قوي في الداخل، حال ما كان معروفاً من سيرة الملك السعدي ***أحمد المنصور*** (891 هـ/1486 م - 965 هـ/1557 م) الذي دخل في أحلاف مع كل من ***بريطانيا*** و***هولندا*** ضد ***إسبانيا***، وكذلك أيام المولى ***إسماعيل*** وعلاقته مع ***فرنسا***، من خلال سفيره ***ابن عائشة*** لدى بلاط ***لوي الرابع عشر*** (1643 م – 1715 م) في فرساي، والمولى ***محمد بن عبد الله بن إسماعيل*** (1171 هـ/ م1757 -1205 هـ/ 1790)، وابنه ***المولى سليمان*** 1270 هـ/1792 - 1238 هـ/ 1822 م).

قلت:

وقد جاء المولى سليمان إلى سدة الحكم في 12 مارس 1792 وقد مر على الثورة الفرنسية سنة 1789 ثلاث سنوات.

---

[31] وقد خرج في هذه الرحلة من مراكش في ثاني ذي الحجة سنة 1195 هـ/19 نوفمبر 1781 م، رفقة كل من عبد الكريم بن قريش، ومحم المير السلاوي، والطيب ابن جلون، والتهامي البناني وحملوا معهم 80.000 ريال. وقد لخص عبد الرحمن بن زيدان هذه الرحلة في كتاب: "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" (3: 320).

[32] أورد محمد الفاسي في تقديمه لكتاب "الإكسير" ص. ل، اسم عبد الحميد الثالث، وهو خطأ. وربما أوقعه في هذا الخطأ كون الخليفة العثماني السابق هو السلطان مصطفى الثالث (1757 - 1774) الذي تولى الخلافة العثمانية في نفس السنة التي تولى فيها السلطنة بالمغرب محمد بن عبد الله، إلا أن تاريخ الرحلة (1785 - 1788) تتفق مع الاسم الذي قدمنا.

[33] وقد دامت هذه الرحلة عامين وسبعة أشهر من يوم خروجه في 4 نوفمبر 1785 إلى رجوعه إلى فاس يوم 4 يونيو 1788 م. وسوف تكون له سفارات إلى إسبانيا مرة أخرى على عهد المولى اليزيد بن إسماعيل إلى كاروس الرابع في 5 صفر 1206 هـ14 أكتوبر 1791 م. وسيوليه السلطان سليمان عندما بويع في 17 رجب 1206 ه،12 مارس 1792 م على رئاسة الشؤون الخارجية للمغرب في 16 ربيع الأول 22/1207 أكتوبر 1792.

بل والعجيب!، هو أن تكون علاقة المولى سليمان، **وهو** الطهري السلفي **الذي لا يخفي تحمسه للإسلام، جيدة، مع حكومة** ***"المديرية"*** **(Le Directoire) التي جاءت بعد الثورة الفرنسية سنة 1789!.**

بل والأعجب!، هو أن تظل كذلك، حتى مع قدوم حكومة ***نابليون الأول*** *بونبارت* **نفسه، بالرغم من احتلاله ل** مصر**، وعلم المولى سليمان بذلك!، حيث سيصدر تعليق عن جريدة الجمهورية الباريزية الرسمية: "المدرب" (Le Moniteur)، على إثر الاتفاقية التجارية والملاحية، التي كان قد تمكن الوزير** *محمد بن عثمان المكناسي* **من إبرامها بحنكته السياسية مع** *إسبانيا* **سنة 1799 جاء فيه[34]:**

إن مبادئ الحقوق الدولية المقدسة قد انتقلت من كتب الفلاسفة إلى دواوين الممالك المغربية، وصارت هذه المبادئ تهيمن على أعمالهم. فلم تبق الخلافات الدينية بين الشعوب تقف حجر عثرة في سبيل التقارب بينها. وإن نفس أولئك المسلمين الذين كانوا لا يقبلون من الكفار إلا الخضوع أو السيف، صرنا لا نسمع منهم اليوم إلا ألفاظ: الصداقة، والتفاهم، والانسجام. وباختصار، فإن إمبراطور المغرب يكتب أنه يتمنى أن لفظة "الاسترقاق" البغيضة تزول من ذاكرة البشر، ويوقع على هذا باسمه، كما ورد في الفصل الثالث عشر.

قلت:

ويمكن اعتبار حكم ***محمد بن عبد الله*** **البداية الأولى لنمط من حكام الدولة العلوية الذين لهم إلمام وافر ب** *العلوم الشرعية*، **ويحاولون إخضاع كل دواليب الدولة لهذا الإطار العام سواء في الداخل أو الخارج.**

فسياسة افتكاك أسرى المسلمين على طول البحر الأبيض المتوسط، هي جزء من هذا الهاجس العام[35].

---

[34] أنظر تقديم محمد الفاسي لكتاب محمد بن عثمان المكناسي"الإكسير في فكاك الأسير" ص. ف.

[35] ذكر الشيخ أبو العباس الناصري في "الاستقصا" (8: 70) عن أسرى المسلمين الذين افتكهم من الأسر محمد بن عبد الله فقال: {وأما ما أنفقه من الأموال في افتكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق. لقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف (1786 م) ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة. بل إن السفير محمد بن عثمان المكناسي يتعجب من ظاهرة غريبة في تعامل الحكام الأتراك بالجزائر مع هذا الأمر الخطير فقال في "الإكسير" ص. 165: {والأسارى المذكورون السرحون كلهم من أهل الجزائر وإيالتها، ومع ذلك لم يغفل عنهم سيدنا أيده الله (يعني به محمد بن عبد الله) فقد أخرج منهم زهاء الألفين في دفعات. وقد كان سيدنا أيده الله قبل هذا بنحو أربع عشرة سنة تكلم مع الطاغية (حاكم إسبانيا) وحتم عليه في فداء الأسارى المذكورين بالمعاوضة

ومحاولة السلطان سليمان ***محاربة البدع والخرافات*** اتباعاً لما استنه والده قبله تـــصب في ذات المنحى.

وكذلك اختيار سليمان ل ***عبد الرحمن بن هشام*** لخلافته بدل أحد أبنائه المباشرين، لقوله يوم توليته العهد بأن الدين النصيحة، وبأن عبادة ***عبد الرحمن بن هشام*** في تقواه وزهده ***عبادة صهيبية***، نسبة إلى الصحابي ***صهيب الرومي***.

وستكون سيرة ***عبد الرحمن*** رحمه الله، كما توسم فيه سليمان ليورث ابنه ***محمد الرابع*** ذات السجايا.

قلت:

ولا شك، أن أقل القليل من النخبة المغربية التقليدية، إلى هذه الفترة الزمنية، من كانت على علم أو اطلاع، بالشق المعرفي من هذه النهضة الأوروبية، كما سيسطر ذلك بإسهاب الشيخ الأزهري ***رفاعة بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع الطهطاوي*** (1216 هـــ/1801 م – 1290 هـــ/1873 م)[36] في كتابه: ***"الدولة الإسلامية، نظامها وعمالاتها"***[37]، بعد أن مكث في باريز لخمس سنوات.

ونفس الشيء ينطبق على علمهم بالمحاولات الإصلاحية للـــوزير ***خير الدين التونسي باشا*** (1225 هـــ/1810 م – 1308 هـــ/1889 م)[38] صاحب كتاب: ***أقوم المسالك***

بأسارى الاصبنيول الذين بالجزائر فأسند الطاغية الأمر إلى سيدنا نصره الله فبعث إلى عامل الجزائر يحضه على تتميم هذه الحسنة فأعلم الطاغية فحمل جميع أسارى المسلمين في المراكب ووجههم إلى الجزائر بقصد مفاداة المسلمين بالنصارى. ففدى عامل الجزائر الترك وامتنع عن فداء العرب! وفدى من بقي من النصارى بالمال ورد المسلمين إلى الأسر ببلاد الكفرة!. فانظر إلى هذا الفعل الشنيع! والأمر الفظيع! كأنه لم يبلغه قول رب العالمين: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب﴾..}.

[36] تخرج من الأزهر وأوفد غلى فرنسا ضمن بعثات محمد علي باشا فدرس الفرنسية والجغرافية والتاريخ وعاد غلى مصر ليتولى رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية وترجم عدة كتب، وأنشأ جريدة "الوقائع" المصرية.

[37] نشرته مكتبة الآداب بالقاهرة سنة 1990.

[38] أصله جركسي وقدم تونس مملوكاً صغيراً واعتنى بتربيته باي تونس، وكانت له سفريات إلى فرنسا مما فتح عينيه على الجانب التقني والتنظيمي للحكم في الغرب. وسوف يشغل منصب وزارة الحربية بتونس، إلى أن استدعاه السلطان عبد الحميد إلى القسطنطينية ليشغل منصب الصدارة لفترة. وهو يدعو في كتابه إلى الأخذ من بعض معارف الغرب ونظمه من باب أن بضاعتنا ردت إلينا.

في معرفة أحوال الممالك" كما تمثلت في برنامجه الإصلاحي الذي روج له من خلال خطة جسدها كبرنامج عمل في **المدرسة الصادقية**" التي أنشأها سنة 1291 هـ/1874 م ووكل بها كلاً من الشيخين: **سالم بوحاجب** (1244 هـ/1828 م – 1342 هـ/1924 م) ، و**عمر بن الشيخ** (1239 هـ/1826 م – 1329 هـ/1911 م) الذين سيتخرج على أيديهما المقاصدي **محمد بن الطاهر بن عاشور** [39].

قلت:

ويعد **ابن عاشور** بحق، أول من سيجدد الاهتمام ب "**علم المقاصد**" كرؤى ضمن مجال معرفي بحاجة إلى تجديد وإعادة نظر، بعد أن تنوسي واندرس كتخصص منذ قرون![40]، مستأنفاً لمنظورية *الإمام الشاطبي* (ت: 790 هـ) رحمه الله في هذا المجال، ونافضاً للغبار أيضاً عن "**علم الاجتماع**"، لصلته الوثيقة بعلم المقاصد، منطلقاً من حيث تركه **عبد الرحمن بن خلدون** (ت: 808 هـ) في "**المقدمة**"، وتلميذه غير المباشر: **أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأصبحي الغرناطي الأندلسي** الشهير بلقب: **ابن الأزرق** (ت: 896 هـ/1491 م)[41] في كتابه: "**بدائع السلك في طبائع الملك**"[42]، المتوفي سنة فقط، قبل سقوط غرناطة سنة 897 هـ/1492 م.

فهذا الوعي الحضاري المتجدد بالمحيط والجوار والعالم، لن يبدأ في التشكل كحضور ذهني وحاد عند المغاربيين، سوى مع صدمة **احتلال الجزائر** سنة 1830 م، ووقوف السلطان

---

[39] أنظر: "(8) صناعة الفقه: التقويمات المقاصدية عند محمد بن الطاهر بن عاشور" ضمن هذه السلسلة التقويمية

[40] أنظر: مقدمة محمد الطاهر الميساوي على كتاب: "مقاصد الشريعة الإسلامية" لمحمد الطاهر بن عاشور، ص. 36-37، ط. أولى 1420 هـ/1999 م، ودار النفائس، الأردن.

[41] تولى خطة القضاء بغرناطة ثم انتقل إلى مدينة تلمسان بالقطر الجزائري ثم إلى مصر ليدركه أجله وهو في بيت المقدس.

[42] نشرته وزارة الإعلام العراقية بتحقيق د/علي سامي النشار من مجلدين الأول سنة 1977 والثاني سنة 1987.

عبد الرحمن بن هشام **إلى جانب المجاهدين الجزائريين بقيادة الأمير** ***عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري*** **(1222 هـ/1807 م – 1300 هـ/1883 م)** .

وقد وصل خبر هجوم فرنسا على الجزائر سنة 1830 للسلطان عبد الرحمن بن هشام من خلال قنصله اليهودي بجبل طارق ابن أوليل (Ben Oliel) فكتب رسالة إلى عامله على مدينة تطوان جاء فيها:

{لقد بلغنا من خلال ابن أوليل الكارثة التي حلت بالإسلام والمسلمين. فحزن كبير ألم بكل المؤمنين من جراء الهجوم على الجزائر من طرف أعداء الله، فاستيلاء الفرنسيين الغزاة على الكنوز وكميات كبيرة من الأموال، وإخضاع "الداي" إلى شروط غير مسبوقة من الاذلال (...) فالله يعين المسلمين على مواجهة هذه النازلة المروعة، ويعينهم على هزيمة الكفرة الأعداء وأن ترجع هذه البلاد إلى الإسلام..}[43].

وكتب لنفس العامل يأمره بمد المساعدة للاجئين الجزائريين الفارين بدينهم إلى المغرب ولجوئهم إلى مدن الشمال المغربية ومنها مدينة تطوان:

{وصلتنا رسالتكم التي تعلموننا فيها بوصول سفينتين تحملان سكان الجزائر إلى تطوان، أرجعها الله إلى دار الإسلام، والذي قالوه عن السكان الآخرين وأولئك الذين بوهران وكذلك ما فعله العدو الكافر، خيب الله سعيه.
فاعلم أنه يجب عليك الترحيب الحار بكل من يطلب اللجوء، وأن تعينهم، وأن تظهر لهم الضيافة والعون الأخلاقي. إن مساعدة قلوبهم المنكسرة للشفاء واجب إلزامي، خصوصاً إذا ما تذكرنا بأنهم إخوان مسلمين لنا هزموا وشردوا من طرف العدو الذي أخذ بلدهم وممتلكاتهم. لقد فروا للنجاة من حكمه، وبالتالي حفظ دينهم، فالله الرحيم يعينهم..}[44]

وسيتجدد هذا الوعي بالمحيط والجوار براهنية أكثر بعد هزيمة الجيش المغربي بقيادة الأمير وولي العهد ***محمد بن عبد الرحمن بن هشام*** **في** ***وقعة إسلي*** **سنة 1844 أيام حكم والده السلطان واستشارة الأمير والوالد للعلماء في كيفية التحديث للرد على هذا المأزق العسكري[45].**

---

[43] أنظر: "الوثائق" المجلد الأول، 10 صفر 1246.

[44] أنظر: "الوثائق"، المجلد الأول، 22 ربيع الأول سنة 1246.

[45] وقد كان هناك اتصال مع محمد علي الكبير باشا الذي أرسل إلى المغرب كتباً تدريبية للجيش المغربي أنظر: عبد الله العروي 1977، في: "الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، 1830-1912) الطبعة الفرنسية (Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalism Marocain, 1830-1912)، ص. 272، نشر ماسبيرو (Maspéro)، باريز.

وقد جاءت الفتاوى من العلماء، لا تقتصر على هذا الجانب العسكري من الإشكالية، بل تعدته إلى جوانب أخرى، مثل ***التمثيلية*** و***الشورى***، كما في كتـــاب: ***"كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة"*** للقاضي ***محمد بن عبد القادر بن أحمد الحسني الإدريسي الفاسي***، الشهير بلقب: ***الكردودي*** (1217 هـــ1802 م – 1268 هـــ/1852 م)، الـــذي أبـــدى إعجابـــه الشديد بالتنظيم العسكري الأوروبي، قائلاً[46]:

واعتنى الروم لوقتنا هذا بأمر الصفوف وبالغوا في ترتيبها وتسويتها بما لا مزيد عليه.

وحث على ضرورة تكوين جيش نظامي عصري مماثل[47].

وقال بخصوص الشورى[48]:

والروم لعهدنا وكذلك الترك فيما يبلغنا، قصروا الشورى على أربعين رجلاً، فلا يبرم أمر عندهم إلا إن صدر عن رأيهم وإشارتهم، وتسمى هذه الجماعة بالكرطي[49]

وضمن هذا الإطار فقد راسل ***الأمير عبد القادر الجزائري*** علماء القرويين يستفتيهم في الجهاد، وفي المسائل المالية كالضرائب والإعانات المفروضة على القبائل وغيرها من الأمـــور التي كان يصادفها في تنظيم جهاده، فجاءت فتوى ***علي بن عبد السلام التسولي*** تحت عنـــوان: ***"الجواب البسيط"***[50]، حيث أفتى من بين ما أفتى به:

---

[46] الكردودي: "كشف الغمة"المطبعة الحجرية الفاسية، ص. 6. بدون تاريخ.

[47] وهناك رسالة لكاتب مجهول حملت عنوان: "رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف" وفيها يحذر من الاستعمار الفرنسي في الجزائر الذي يطبخ للمغرب ما قام به بالجزائر. وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 1623 د.

[48] نفس المرجع ص. 46.

[49] وهو الكورطيس (Cortes) اسم البرلمان الإسباني.

[50] وهو مطبوع طبعة حجرية بفاس من 80 صفحة.

جواز عقد الهدنة والصلح مع الدولة المسيحية، إذا عجزت الدولة الإسلامية عن صدها بالقوة ورأت في الصلح مصلحة للأمة، حتى وهي تحتل أطرافاً من أراضيها، من بـــاب العمـــل بأخف الأضرار.

قلت:

لكن، ومع هجوم الإسبان على تطوان، وهي دولة من الدرجة الثانيـــة دوليـــاً يومهـــا، واحتلالها للمدينة في شهر فبراير سنة 1960 وفرضها لغرامة مالية حربية على المغرب بلغت 100 مليون بسيطة، ظهر جلياً للمغاربة أولا، ثم للأجانب ثانياً، أن المغرب بحاجة إلى إصلاحات جذرية في بنيته الاقتصادية والعسكرية، إن هو أراد أن يحـــتفظ باســـتقلاله. وكتـــب المـــؤرخ المخزني أبو العباس أحمد بن خالد الناصري عن هذه الكارثة بقوله[51]:

ووقعة تطاوين هذه، هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انطساراً لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير.

لكن، كيف يمكن للمغرب القيام بتفكيك بنيته القديمة المترهلة، وإعادة بناء دولته مـــن جديد على أسس عصرية حديثة، ومداخله الأساسية من العملة الأجنبية إنما كانت من المراســـي في الضرائب الجمركية التي كانت تفرض على الواردات، وها قد فرض على المغرب تخصيص 60% من ريع هذه المرافئ لمدة خمسة وعشرين سنة من أجل تسديد الدين الإسباني!؟.

هنا استشعر السلطان ***محمد (الرابع) بن عبد الرحمن بن هشام*** (1276 هـــ/1290 هـــ

– 1290 هـــ/1873) فداحة الموقف السياسي والاستراتجي للمغربي الـــذي أصـــبح تتهدده دولتان عدوانيتان على كل من حدوده الشرقية والشمالية، لا تحتاجان إلـــى مبـــررات أو ذرائع من أجل إحراجه داخلياً وخارجياً، فشرع جدياً في البحث عن وسائل تساعده علـــى فـــك

[51] أنظر الشيخ أبا العباس أحمد بن خالد الناصري في "كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" (9: 101)، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب.

عزلته السياسية والدولية، باتخاذ عدة إجراءات، منها على الخصوص ابتعاث سفارات إلى الخارج، فكانت منها سفارتين متزامنتين لكل من فرنسا وبريطانيا:

الأولى: قام بها ***أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي*** إلى الملكة ***فيكتوريا***

(1838 – 1901 م) في بريطانيا، وهي في أوج عصرها في صيف سنة 1860، بغية التشاور معها فيما يمكن عمله إزاء القوتين اللتين، إلى حد الساعة، كانتا تختلف مصالح كل منهما مع الآخر، وتختلف مصالح كلاهما معاً مع مصلحة ***أنجلترا***، التي كانت لا تريد أن تشاركها دولة قوية في التحكم في الملاحة بمضيق ***طنجة***، التي تشرف هي عليه من قاعدتها البحرية ***بجبل طارق***.

وهكذا أمكن المغرب اللعب سياسياً على هذا التنافس المصلحي بين القوى الثلاث المتشاكسة، ولو إلى حين!.

وقد جاء وصف الفاسي لرحلته في كتاب: ***"الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية"***[52].

ثانياً: سفارة كاتب ديوان محمد الرابع: ***ادريس بن (الوزير) عبد الله بن محمد بن ادريس الزموري*** إلى ***فرنسا***.

وقد سلم الفاسي في سفارته هذه كتاباً إلى ***نابليون الثالث*** (1808 – 1873)

لم يفصح عن فحواه ولا المهمة التي كلف بها ولا الغرض المتوخى من سفارته[53]، على معهود أصحاب هذه الرحلات. غير أنه ترك لنا وصفاً دقيقاً لرحلته[54] والأماكن التي زارها[55] في كتابه: ***"تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"***[56].

---

[52] نشرها محمد الفاسي ضمن سلسلة الرحلات السفارية، العدد رقم: 2، من مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي، لسنة 1968.

[53] فقد تطرق إلى مسألة الحدود الجزائرية المغربية مع نابليون أنظر "تحفة الملك العزيز" ص. 106.

[54] وابتدأ رحلته من فاس في يوم السبت 13 ذي القعدة 1276 هـ/22 يونيو 1860 وركب الباخرة الفرنسية "فودر" (Foudre) بمعنى "الصاعقة" من ميناء طنجة إلى مرسيليا الفرنسية وامتدت إقامته لاثنين وأربعين يوماً وقفل راجعاً يوم 4 أغسطس 1860.

[55] ومنها: دار السلاح ص. 73، ودار سك العملة ص. 75، ودار الطباعة ص. 76، والتلغراف ص. 83، والصحافة ص. 98، ،والجيش الفرنسي وتنظيمه ص. 118. وقد استقبل بحفاوة بالغة لغلم الفرنسيين بسفارة أبي الجمال الفاسي إلى بريطانيا في نفس الوقت!.

ويحاكي الكتاب من خلال عنوانه كتاب ***رفاعة رافع الطهطاوي***[57]: "***تخليص الإبريز في تلخيص باريز***"، وهو ما يشير إليه العمراوي نفسه بوضوح[58].

قلت:

وظل هذا التحدي قائماً بدون حل، لدى الجيل التالي لهؤلاء، فصدر في هذا المعنى كتاب ***لأبي الحسن علي بن محمد السوسي السملالي*** (ت: 1328 هـ/1910 م) تحت عنوان: "***مطالع السعادة في فلك سياسة الرياسة***" وقدمه للسلطان ***الحسن (الأول) بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام*** (1290 هـ/1873 - 1312 هـ/1894) ، وعنوانه مفصح على عقم مبناه.

وقد انتقلت الإشكالية كأزمة فكر وممارسة إلى عهد السلطان ***عبد العزيز*** (1894 - 1907) ، ثم إلى عهد أخيه ***عبد الحفيظ*** (1908 - 1912) من بعده، ليرثها الجيل اللاحق، وهو جيل ***علال الفاسي*** نفسه، حال ما سنجد عند كل من مؤرخ الدولة العلوية ***عبد الرحمن بن زيدان*** (1366 هـ/1946 م)[59] في كتاب: "***إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس***"[60]، وعند شاهد القرن المغموط الحق!، ***محمد بن الحسن الحجوي*** في "***المذكرة***" وغيرها من مؤلفاته[61].

---

[56] حققه د/زكي مبارك ونشرته مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال بطنجة سنة 1989.

[57] لقد أمضى الطهطاوي خمس سنوات في باريز (1826 - 1831) أي أنه كان بباريز يوم اختلت الجزائر.

[58] يقول العمراوي أثناء حديثه عن دار الكوميديا الفرنسية ص. 89: {ويسونها المدية السلطانية وكنت أضحك من ذلك وأعده من جملة المزاح الذي لا يعبأ ولا يؤبه له وأنه ليس من الجد في شيء حتى وقفت على كلام الشيخ رفاعة المصري في رحلته..}

[59] عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبد الملك بن زيدان بن السلطان المولى إسماعيل العلوي المكناسي (1290 هـ/1878 م - 1366 هـ/1946 م) . تخرج من القرويين وولى نقابة الشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، وحج وزار الشرق مرتين سنة 1913 و1938 حيث زار الحجاز وسوريا ومصر ولقي فيها الكثير من أعلام الأدب والسياسة، وألف كتاباً عن رحلته الأخيرة بعنوان: "رحلة الحجاز ومصر والشام سنة 1938"ن كما زار فرنسا ومكث فيها 55 يوماً. ولم يشغل وظيفاً رسمياً مع الدولة وإنما اهتم بالتأليف في التاريخ والسير والأخلاق وغيرها من الموضوعات.

[60] طبعته المطبعة الوطنية بالرباط سنة 1931 م. ويظهر ذلك جلياً من خلال نصوصه ومقتطفاته وقوفه على أعمال أصحاب النهضة من أمثال: الطهطاوي، وخير الدين التونسي والكواكبي كما في "الإتحاف" (4: 472 - 473) حيث نجده يتبنى بعض آراء الكواكبي في نبذ الاستبداد، وبعض آراء خير الدين التونسي الإصلاحية ويتحمس لها.

[61] نشرها الخلوفي محمد الصغير تحت عنوان: "انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: مذكرة محمد بن الحسن الحجوي (1974 - 1956)، مطبعة المعارف، ط. أولى 1994، الرباط. وفي معرض إصلاح المخزن المغربي نجده يقول ص. 15: {فإن قال قائل: ومن أين لك أن هذا الدواء نافع؟ ومن الذي جربه واستعمله؟ أجبناه بأن التاريخ شاهد عدل على ذلك، فكل دولة وقع فيها تضعضع لا يتداركها إلا هذا الدواء

لذلك، لن نعجب أن نجد تراثية تراكمية في هذا المجال، عند ***علال الفاسي***، مـــا وجـــدنا مثلها عند المقاصدي التونسي ***ابن عاشور*** نفسه، الذي مثلت مسألة ***الاستئنافية الإسلامية*** عنده هاجساً ملحاً طافحاً، أكثر مما سنجد عند ***علال الفاسي***، المشغول بالهم السياسي المبتذل أكثر من الهم المقاصدي، والذي سيكتفي بتدريس "***المقاصد***" مستبطناً لمتن ***الشاطبي*** وشرح ***ابن عاشور*** عليه كميتالغة، بقراءة سياسية أكثر منها تأصيلية.

قلت:

ولن يكتشف ***علال الفاسي***، الإمام ***الشاطبي*** ولا موافقاته سوى عرضاً، أثنـــاء إقامتـــه بمصر، من خلال ما كتب عنه كل من: الـــسيد ***محمد رشيد رضا*** (ت: 1354 هـــ/1935 م)

، في تقديمه لكتابه "***الاعتصام***" في طبعته الأولى سنة 1332 هـ/1913 م، ثم ما كتـــب الشيخ ***عبد الله دراز*** في إخراجه وشرحه ل "***الموافقات***"، ثم ما كتـــب مفتـــي المالكيـــة بـــالقطر التونسي الشيخ ***محمد الطاهر بن عاشور*** (1296 هـ/1879 م - 1379 هـــ/1973 م) فـــي كتابه "***مقاصد الشريعة الإسلامية***" الصادر سنة 1366 هـ/1946 م[62].

والأكيد تاريخياً أيضاً، أن اهتمام ***علال الفاسي*** بموضوع "***المقاصد***" لم يحـــصل ســـوى مؤخراً في حياته، ذلك أن الطبعة الأولى لمقاصد ***ابن عاشور***، خرجت إلى السوق في السنة التي صادفت رجوع علال الفاسي من منفاه الإفريقي في الغابون سنة 1366 هـ/1946 م.

وهو المنفى الذي امتد به لعشر سنوات (1937 - 1946)، استغلها علال، لملء وشغل وقته، في تعلم اللغة الفرنسية والثقافة الغربية عامة، حتى أنه سيذهل بعض مخاطبيه الفرنسيين سنة 1947 بموسوعية معارفه وإحاطته بهذه الثقافة![63].

النافع، ولا ينفع فيها مال على كثرته، ولا جيش على خدمته وهكذا. غن الدول الأوروبية والأمريكية والجابون (اليابان)، إنما نهضت من سباتها ووصلت إلى ما وصلت إليه بتنظيم إدارتها، واحترام الحقوق، وضبط الأموال وتدريب الجيوش، ونشر العلوم والمعارف. ففي التاريخ القديم والجديد عبرة وذكرى}

[62] طبعت "الموافقات" في تونس سنة 1302 هـ/1884 م.

[63] استضافه سنة 1947 بيير لوفوشو (Pierre Lefaucheux) رئيس الدمقراطيين المسيحيين في منزله الباريزي ودار حوار موسع في موضوعات مختلفة لها تعلق بالدين والسياسة. أنظر: {Entretien avec André de Peretti (cheville ouvrière du comité France-Maghreb), Paris (I.H.T.P.), 30,5,1996.}.

ولن ينشر علال كتابه: "*مقاصده الشريعة الإسلامية ومقاصدها*" سوى في صيف عام 1383 هـ/1963، ست عشرة سنة بعد نشر ابن عاشور لمتنه[64].

لكن، يبقى أن ل *علال الفاسي* مقاربته *السياسية-المقاصدية*، وإن ظلت سطحية ووصفية وتقريرية وهلامية، ولم تتبلور قط إلى مشروع واضح المعالم سواء أثناء معالجته للمقاصد أو معالجته للحزب كمؤسسة سياسية.

وهو ما يمكن أن ندرجه ضمن إرهاصات *البدايات*" لعلم جديد ضمن رؤية معرفية جديدة، من باب *الإسقاط المقاصدي* على *علم السياسة*، خصوصاً وأنه اشتغل رحمه الله، وكالإمام الشاطبي قبله، ضمن بيئة مشاكسة ومرتكسة ومستلبة، وبعيدة كل البعد عن هذه الاهتمامات، إن لم تكن بيئة ردة في الصميم، على ما سيأتي من وصف الحجوي لبعض نماذجها الأكثر فوعية وفيرسية!.

انتهى وتليه الحلقة الثامنة: علال الفاسي وفسحة المقاصد

---

[64] وقد تأخر ابن عاشور في نشر هذا المتن ست سنوات إلى هذا التاريخ، لأنه يقول بأنه انتهى من تبييضه في 8 جمادى الأولى سنة 1360 هـ.